

الفصل الثالث

الحلم بالنظريات

دخل طبيب الأعصاب آلن سلفرستين (Allen Silverstein) إحدى قاعات المرضى عام ١٩٥٠ في مستشفى بلفيو في نيويورك. كانت هذه الفترة هي فترة انتشار موجة التفسير الفرويدى للأمراض النفسية. رأى سلفرستين في القاعة سيدة صغيرة السن مصابة بنوبة صرع، تعض على شفتيها وتبول بغير إرادتها. وشاهد الأطباء يقفون واحداً بعد الآخر فيصفون حالتها بأنها «حالة متقدمة من حالات ممارسة العادة السرية». يقول سيلفرستين - تعليقاً على ذلك - بأنه اتخذ قراراً في الحال بالتوقف عن الدراسة في هذا الجو، وتحول إلى دراسة الجهاز العصبي للزنازة البحرية.

ترتكز كل نظريات فرويد على ست حالات منشورة :

الحالات الست المنشورة

١ - كانت الحالة الأولى هي «دورا» وهي سيدة في سن الثامنة عشر تشكو من هستيريا. قالت دورا إن والدها على علاقة بزوجة صديق للعائلة، وأن هذا الصديق كان يحاول التقرب منها بتسهيل من والدها لتسهيل علاقته بالزوجة. ولكن هذا التفسير البسيط المنطقي لهستيريا دورا لم يكن يشفى غليل فرويد : فهي في حقيقة الأمر (في رأيه) تريد في عقلها الباطن توطيد علاقة جنسية بأبيها.

وتركت الفتاة عيادة فرويد بعد ثلاثة أشهر.

٢ - سيدة (بدون اسم) كان فرويد يعالجها من اللواط، ولم تتحسن، ولم تستمر في العلاج.

٣ - قصة هانز : كان هانز الصغير يشكو من الخوف من الجياد. فسر فرويد هذا الخوف تفسيراً مبنياً على «عقدة أوديب». حاول هانز شرح السبب البسيط للخوف، وهو أنه شاهد في طفولته حادث عربة يجرها حصان، ولكن فرويد أصر على تفسيره... ولم يتحسن هانز.

٤ - قصة لانزر، الضابط بجيش النمسا، الذي كان يخشى الفئران. كان أيضاً يخشى أن تاكل الفئران صديقتته ووالده. وفسر فرويد الخوف تفسيراً عبقرياً (!) لفظياً:

- فالوالد كان مدمناً للقمار، والقمار يسمى باللغة الألمانية **Spielratte**.

- والصديقة كانت ستزوج لانزر، والزوجة باللغة الألمانية **Hieraten**.

كان تفسير فرويد للخوف من الفئران هو أن لانزر كانت لديه رغبة خفية مكبوتة في أن يقيم علاقة جنسية شرجية مع والده وصديقته، وأن هذه الرغبة قد أدت إلى هذا الخوف من الفئران. وزعم فرويد أن السبب في هذه الرغبة كان إحباط الوالد للنمو الجنسي الطبيعي للانزر بتهديده المستمر له بالخصي. وقال إن مجرد شرح الأمر للانزر أدى إلى شفائه (١٩١).

٥ - حالة دافيل شربر، وهو مريض كتب مذكرة لفرويد يقول فيها إنه لديه مشاعر غير مفهومة بالخوف والاختناق، وبأنه يتحول إلى امرأة وشخص فرويد الحالة بأن شربر مصاب بهوس (Delusional paranoia) نتج عن رغبة مكبوتة في اللواط مع والده.

٦ - سرجى بانكليف أو الرجل الذئب. كان بانكليف يردد حلمًا انتابه: «كنت أنام على سريري، وفتح الشباك بعنف، فرأيت أربع ذئاب بيض تجلس على شجرة جوز أمام الشباك، وفي خوف شديد من الذئاب صرخت واستيقظت».

على أساس هذا الحلم، استنتج فرويد أن بانكليف قد دخل في طفولته على والديه أثناء ممارستهما للجنس، لأن الذئاب بيضاء مثل الملابس الداخلية.

وعندما أجرى الصحفى النمساوى أوبهولزر حديثاً مع المريض، قال إنه لا زال يعاني من الحالة نفسها، وأنه لم يقتنع إطلاقاً بتفسير فرويد.

يعتقد أغلب علماء الأمراض النفسية أن نظريات فرويد مجرد هراء. فبادئ ذي بدء فإن هذه الحالات الست تمثل كل ما نشره فرويد في حياته من الحالات المرضية. وكما ذكرنا من قبل، فإن طرح السؤال، ثم فرض نظرية، ثم إجراء تجارب عديدة لإثباتها أو تكذيبها، ثم النشر تمثل خطوات أساسية في أى عمل علمي جاد. ولكن فرويد لم يفعل.

لكن لماذا صنع فرويد ذلك ؟

إنها رغبة «صبي الساحر» في المجد السريع.

ما قصة هذا الصبي ؟

صبي الساحر فرويد

في عام ١٨٨٥ كان فرويد طبيباً صغيراً في مستشفى في فيينا، وأصيب في هذه الفترة باكتئاب. فرغم أنه كان طبيباً مرموقاً في علم أمراض الأعصاب، إلا أن عيادته كانت خاوية.

كان فرويد قد سمع في عام ١٨٨٤ عن تجارب عن دواء جديد مستخرج من نبات الكوكا في أمريكا اللاتينية. عند تجربته للدواء على نفسه وجد أنه قد عالج تماماً من الاكتئاب، وأنه قد أعاد للحياة رونقها وجدد طاقته، بل ودله على الطريق إلى إعادة المرضى لعيادته... وهو أن يصفه لمرضاه.

وصف فرويد الدواء أيضاً لأقاربه ولعارفه وكتب الكثير عن تأثيره السحري وجرب تعاطيه استنشاقاً وحقناً وتدخيناً، بل وصنع منه أنواعاً من السيجار الفاخر. وكان يتعاطاه قبل أى حفل فيصبح نجم الحفل.

وأصبح الكوكايين مودة العصر، بل إن سير آرثر كونان دويل (Sir Arthur Conan Doyle) عندما ابتدع شخصية شرلوك هولمز، جعل من الكوكايين مصدراً لذكائه وقوة ملاحظاته.

بعد عامين من استعمال الكوكايين، بدأت الدوريات العلمية فى التحدث عن إدمانه ومضاره، فانسحب فرويد بهدوء من الميدان وزعم أنه امتنع عن تعاطيه.

فى هذا الوقت تقدم فرويد لطلب إجازة دراسية للعمل مع الأستاذ شاركو (Prof. Charcot) أحد الإعلام الطبية فى باريس. كان شاركو يستعمل التنويم (Mesmerism) فى العلاج، وبيّنت بعض دراساته أن لبعض المرضى شخصية أخرى تظهر بالتنويم. وهكذا تولد لدى فرويد، كما اعترف بنفسه فيما بعد، الشعور بإمكانية «وجود أفكار ومشاعر مخفية عن العقل الواعى للإنسان» وهى فكرة صحيحة، وإن لم يكن فرويد أول من فكر فيها.

عندما عاد فرويد من باريس إلى فيينا، نشر ورقة عن الهستيريا تتحدث عن أصول غير عضوية لها موجودة فى العقل الباطن، مما أثار غضب أساتذته عليه. وهنا أيضاً لم يكن فرويد أول من فكر فى فكرته هذه. فقد سبقه إليها زميله بروير (Brueuer)، الذى كان يتحدث منذ عام ١٨٨٠ عما أسماه «العلاج بالكلام» (Talking cure).

عمل فرويد فترة مع بروير. ولكن علاقتهما، كأغلب علاقات فرويد مع أساتذته وزملائه، انتهت نهاية غير سعيدة. كانت نظريات فرويد وبروير تفترض أن هناك «تهيجات» (Excitation) للعقل، وأن هذه التهيجات تتجمع وتزيد أو تنقص، وأنها تنفجر فى وقت ما على شكل مرض نفسى.

بعد فترة طور فرويد الفكرة بأن زعم أن الأمراض النفسية عموماً تنتج عن اعتداءات جنسية فى الطفولة ارتكبتها بالغون أو أطفال كبار. وهنا، وفى عام ١٨٩٠، بلغت الخصومة بين بروير وفرويد أقصاها. فقد أنف بروير ومعه أغلب العاملين فى الحقل الطبى من نظريات فرويد واعتقدوا أن ولع فرويد بالتفسير الجنسى للأمراض النفسية كارثة على العلم.

ثم بدأت علاقة بين فرويد وطبيب نمساوى يدعى ويلهام فلايس Wilhelm Flies. كانت لهذا الطبيب أفكار غريبة، منها مثلاً أنه كان يعتقد أن استجابات الجسد والنفس لها دورات حول أرقام ٢٣، ٢٨، وكان يؤمن أن الحياة الجنسية للإنسان تبدأ

مع شاركو

مع بروير

مع فلايس

من الطفولة، وهي فكرة تبنها فرويد أيضاً بحماس، فتحدث عن «التثبيت الجنسي الطفولي» (Infantile libidal fixation) وتبنى فلايس أيضاً فكرة أن كل الآدميين عموماً مزدوجي الجنس (Bisexual)، وهي فكرة تبنها أيضاً فرويد ونسبها لنفسه.

في نهاية القرن، أنهى فرويد أول كتبه «عن تفسير الأحلام» (On the interpretation of dreams)، وفي الوقت نفسه بدأ يشكو من أمراض عديدة نفسية جسدية (Psychosomatic)، واتهم فلايس بأنه هو المسئول عن هذه الأمراض، فقد كره فلايس مثلما كره غيره من زملائه، الذين سرق أفكارهم وانتحل نظرياتهم. وقد فعل الشيء نفسه مع يونج (Jung) وبدأ يعتبر فلايس أعدى أعدائه.

يوضح ديودنى في كتابه الجميل الخطأ الأساسى الذى ارتكبه فرويد فى حق العلم، فيقول:

فى مجالات العلوم الطبيعية تحد التجارب من الخيال الخصب، ولكن فى «علم» العلاج النفسى الجديد لم تكن هناك إجراءات تجريبية لتحديد من خيال فرويد الخصب. وهكذا استمر فرويد فى غيه وفى الدفاع الشديد عن أفكاره ونظرياته، رافضاً أى نقض لها، متهماً كل ناقديه بكافة النقائص النفسية. وتعمد فرويد أن يخلق من نفسه أسطورة كرسها بأن أحرق أوراقه الخاصة فى عام ١٩٠٧.

تجاهل فرويد فى نظرياته خطوتين مهمتين فى البحث العلمى :
التجربة ... والنشر

واستفادة العديد من الناس من التحليل النفسى لاتدل على شئ، فعديد من الناس تتحسن حالتهم المرضية بالتعامل مع أنواع مختلفة من الدجل. ولكن الدجالين لا يدعون أن ممارستهم نوع من العلم، أما فرويد فإنه يفعل.

تطورت اليوم ممارسة العلاج النفسى :
أولاً - بالكيمياويات

ثانياً - بدراسة تشريح الجهاز العصبى. والذى يبدأ كما قال ديودنى فى أول الفصل بتشريح البزاقة البحرية «أبلازيا» (Aplasia).
نعم إن المشوار طويل.

خيال خصب

أين الخطأ

تطور ممارسة العلاج النفسى

نعم إن المشوار بين ألف عصبونة فى البزاقة إلى تريليونات من العصبونات فى المخ
البشرى!
ولكن ... هكذا العلم.